مَفْهومُ (الجاهِلِيَّةِ) مِنْ مَنْظُورٍ قُرْآنِيٍّ

أ.د. علي الأسدي

عضو الهيئة العلميّة في كلّيّة الشهيد مطهّري

للإلهيات والمعارف الإسلاميّة في جامعة فردوسي مشهد

فحوى البحث

الحديث عن الجاهليّة هو الحديث عن منهجٍ غير محدود بزمنٍ معيّن. فهي حالة اجتماعيّة يمكن أن تظهر في كلّ زمان ومكان. ولها مواصفاتها وأهدافها ومعاييرها. وهذه حقيقة أكّدها القرآن الكريم والسنّة الشريفة ودراسات الباحثين. فقد جعلها القرآن في مقابل الدين، ونظرت إليها السُّنة كمبدأ معارض للإسلام في الحياة. وكشفت دراسات الباحثين المتتبّعين عن هويّتها كحالةٍ لا مرحلةٍ زمنيّةٍ معيّنةٍ. وما هذه الدراسة إلاّ تبيانٌ لحقيقتها وكشفٌ عن هويّتها كمنهج في الحياة لتلفت الانظار إلى استيعاب كنهها والوقوف عند شبهتها فتتنوّر الأذهان وتعي فلسفتها.

تمهيد

في معنى الجاهلية وتعريفها

أودّ قبل أن أبدأ الحديث عن تعريف الجاهليّة أن أُثبّت خمس حقائق مهمّة تدلّ على البحث والتتبّع والاستقصاء. وهي تمهّد لهذه الدراسة.

الاولى: الجاهليّة اصطلاح أدخله القرآن الكريم في اللغة العربيّة. فلم يُعرَف من قبل إذ لم أعثر عليه في التراث الشعريّ و النثريّ لعصر ما قبل الإسلام. فلابدّ من أن يكون القرآن المعيار الأساس في دراستها.

الثانية: كانت الجاهليّة موجودة قبل الإسلام وبعده. وهو ما أكّده القرآن الكريم والأحاديث المأثورة والروايات والأخبار الموثّقة.

الثالثة: يُلحَظ خطأ شائع فحواه أنّ الجاهليّة هي في مقابل العلم والمعرفة. وهي ليست كذلك. ومن الطريف أنّ معاجم اللغة لم تذكرها في مقابل العلم بل في مقابل الدين. وسيرد لذلك مزيدُ بيان.

الرابعة: وردت الجاهليّة في القرآن الكريم مطلقة مجرّدة عن النسبة لأنّها منسوب إليها وليست منسوبةً إلى شيء.

الخامسة: لا تقتصر الجاهليّة كحالة و منهج في الحياة على العرب بل تشمل شعوب الأرض قاطبةً ما دامت مُعرضةً عن الدين، ناكبةً عن الصراط المستقيم. ففهمها كفترةٍ تاريخيّةٍ محدّدةٍ بزمنٍ مسمّى هو فهم خاطىء.

أمّا معناها وتعريفها فنقول: إنّ أوّل معنى يتبادر إلى الأذهان هو أنّ الجاهليّة في مقابل العلم والمعرفة. فكثير من الباحثين ومنهم طائفة من المستشرقين ذهبوا إلى هذا الرأي. ولمّا كان العرب قبل الإسلام جاهلين بالعلوم والمعارف فقد وسمهم الله تعالى بهذه الصفة. في حين ذهب فريق آخر إلى أنّ اللفظ ليس مأخوذاً من مطلق الجهل، بل هو مأخوذ من جهل خاصّ هو الجهل بالله و رسوله، وشرائع الدين. ومن هذا الفريق الدكتور فليب حتّي، قال: إنّها-الجاهليّة -الفترة التي خلت فيها الجزيرة من أيّ قانون، أو نبيّ موحى إليه، أو كتاب مُنزَل»[1].

(١) تاريخ العرب (مطول)، فليب حتّي.

ويرى المستشرق جولدتسيهر أنّ المقصود من كلمة جاهليّة هو السفه- الذي هو ضدّ الحلم -والأنفة، والخفّة، والغضب... وقد يستشهد لذلك بقول عمرو بن كلثوم التغلبيّ في معلّقته:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا

فنجهل فوقَ جهلِ الجاهلينا[٢]

وثمّة رأي يستند إلى فهم ماركسيّ للتاريخ يعتبر انّ الجاهليّة هي «البربريّة» في علم الاجتماع. ففي طور البربريّة «يبدأ الإنسان باستخدام الحديد لصنع آلاته وأدواته ثمّ ينتقل بعده إلى طور الحضارة نتيجةً لاكتشافه الكتابة بحروف هجائيّة» على حدّ تعريف انجلز لطور البربريّة الذي ينتقل الإنسان منه إلى طور الحضارة[٣].

فالجاهليّة -وفقاً لهذا الرأي -اسم لمرحلة اجتماعيّة (البربرية) تقابل مرحلة الحضارة[٤].

هذه هي الآراء المعروضة في معناها. ولكن نظرة فاحصة على موارد استعمال مادة (جهل) ومشتقّاتها -بخاصّة كلمة جاهليّة -في القرآن الكريم تكشف عن أنّ هذا اللفظ يراد منه ما يقابل كلمة «إسلام» تماماً. وبذا يكون المراد من (جاهليّة) «منهج في الحياة مقابل ومضادّ لمنهج الإسلام»[٥].

ونقرأ في معاجم اللغة أنّ الجاهليّة لا تقابل العلم والمعرفة. فقد جاء في «لسان العرب» ما نصّه: (الجاهليّة زمن الفترة ولا إسلام... وفي الحديث: إنّكَ امرؤٌ فيك جاهليّة، هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله و شرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبّر وغير ذلك)[٦].

وورد في «مجمع البحرين» قوله: وأجمعت الصحابة على أنّ كلّ ماعصي الله به فهو جهالة. وكلّ من عصى الله فهو جاهل. وقيل: الجهالة اختيار اللذّة الفانية

(٢) فجر الإسلام، أحمد أمين: ٧٠، ط١١. ومقابلة الجهل بالجهل قِيَميّة فَليُلتَفَت.

(٣) بين الجاهليّة والإسلام، الشيخ محمد مهدي شمس الدين: ٢٣٦ عن كتاب العرب والإسلام والخلافة العربية، ى. أ. يلياييف: ١١٢ -١١٣.

(٤) نفسه: ٢٣٦.

(٥) نفسه: ٢٣٧.

(٦)لسان العرب، ابن منظور ١١: ١٣٠، مادة «جهل».

على اللذّة الباقية)[٧]. (والجاهليّة الحالة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين)[٨]. وأسوأ الجهل هو الجهل بالله ورسوله ودينه.

وحدّدت المعاجم الفارسيّة الجاهليّة بالفترة التي سبقت الإسلام. والإشكال الوحيد الذي يمكن أن يُسجَّل على المعاجم المذكورة هو غفلتها عن المعنى القرآنيّ للجاهليّة، فقصرت الجاهليّة على تلك الفترة المحدودة التي كانت قبل الإسلام، إلّا معجم دِهخُدا فانّه اكتفى بذكر الآيات القرآنيّة المرتبطة بالموضوع ولم يوضّح شيئاً. والغفلة المذكورة سهو فاحش لأنّ الجاهليّة كما يفيد القرآن مفهومٌ لا زمنٌ محدود، وحالة اجتماعيّة لا مرحلة موقوتة. وهي «اسم للضلال والانحراف عن المثل الصحيحة والمناهج المستقيمة لدى أي عنصر من الناس وفي أي وطن كان وأيّ زمان»[٩].

ومن المهمّ أن نعرف التفاوت بين «الجاهل» و «الجاهليّ». فإذا قلنا في العربيّة: جاهل، فانّما نعني به من يقابل العالم. أمّا إذا قلنا: جاهليّ فالمقصود به من يقابل (الالهيّ) أو (الإسلاميّ). وهذا تفاوت علميّ وواقعيّ. ويطمئننا أنّ الجاهليّة هي غير الجهل (في مقابل العلم) بل هي في مقابل الدين تماماً. وذلك هو ما صرّح به الكتاب العزيز. ومن المناسب أن نشير إلى أنّ كلّ جاهليّ جاهل وليس كلّ جاهل جاهليّاً.

ملامح الجاهليّة بعامّة:-

للجاهليّة بنحو عام ملامح ومواصفات ذكرها بعض الكتّاب والباحثين منها: الإلحاد وفقدان الإيمان الصحيح بالله سبحانه، وعدم الاستسلام لحكم من أحكام الله تعالى أو لجميع أحكام الله، واتّباع الأهواء، ووجود الطواغيت الذين يحوّلون الناس من عبادة الله إلى عبادتهم، والانغماس في الشهوات[١٠]. ومنها: التحلّل من جميع التبعات والمسؤوليّات في الحكم، واسترقاق المحكومين واستغلالهم، وخلوّ الحكم

(٧) مجمع البحرين، الطريحي ١: ٤٤١.
(٨) نفسه ١: ٤٢٢.
(٩) بين الجاهليّة والإسلام، محمّد مهدي شمس الدين: ١٩.
(١٠) جاهليّة القرن العشرين، محمد قطب: ٤٢-٥٤.

في عالمها من أيّ سلطة قضائيّة يحتكم إليها الناس، وممارسة الأخلاق فيها على أساس عاطفيّ، أو شخصي، أو عنصري، أو طبقيّ، ولم يكن للعقل والمثل الدينيّة الصافية فيها سوى نصيب يسير[11]. ومنها: الاهتمام بالمحسوسات أكثر من المعنويّات، وشيوع روح التعصّب والعدوان، والماديّة، والحيوانيّة[12]، وبكلمة واحدة: هي رذيلة مطلقة أو منهج غير قِيَميّ في الحياة.

ملامح الجاهليّة من منظور قرآنيّ

ليست الجاهليّة وحدها تدلّ على المذهب والطريقة التي تقابل الإسلام، بل إنّ معظم ما ورد من مشتّقات الجهل في الكتاب العزيز يدلّ على ذلك أيضاً. فالتدبّر في الآيات القرآنيّة الكريمة التي وردت فيها مشتقّات الجهل مثل: الجاهل، الجاهلين، بجهالة، يجهلون، تجهلون، جهول، جاهلون يوقفنا على حقائق عجيبة صفوتها: إنّ المفردات المذكورة تقابل الإسلام وماسبقه من رسالات سماويّة.

(١١) بين الجاهليّة والإسلام، محمّد مهدى شمس الدين، ص ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٩، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٧٣.
(١٢) نفسه.

وهذه نقطة جديرة بالتأمّل أيضاً إذ إنّ الجاهلين هم الذين واجهوا رسالات السماء وانبروا للمرسلين :وحادّوا أحكام الله سبحانه، فهم كالجاهليّين تماماً. والتحقيق في هذه الآيات يفيد أنّ الجهل هو العامل الرئيس على مناوءة أصحابه لرسالات الله سبحانه. بيد أنّ الخليق بالذكر هو أنّ آية من الآيات لم يرد فيها الجهل على سبيل الذمّ كما ذكر ذلك الراغب في مفرداته. فقد قال في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: (الجهل على ثلاثة أضرب:

الأوّل: وهو خلوّ النفس من العلم، هذا هو الأصل.

وقد جعل ذلك بعض المتكلّمين معنى مقتضياً للأفعال الجارية على غير النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ماهو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ماحقّه أن يُفعَل سواءً اعتقد فيها اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، كمن يترك الصلاة متعمّداً.

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ

﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٧] فجعل فعل الهزو جهلاً. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [سورة الحجرات: ٦]. والجاهل تارةً يذكر على سبيل الذمّ، وهو الأكثر؛ وتارةً لا على سبيل الذمّ نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣]. أي: من لا يعرف حالهم وليس يعني المتخصّص بالجهل المذموم)[١٣].

ومعاني الجهل التي تفيدها الآيات المعهودة تنحصر في الخلوّ من المعرفة؛ والطيش والسفه؛ والمذهب والطريقة (مايقابل الإسلام من مناهج الحياة)[١٤]. أمّا الخلوّ من المعرفة فقد أُشير إليه في الآية المتقدّمة.

وأمّا الطيش والسفه فمن الآيات التي ورد فيها هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٧]. «فإنّ الجهالة هنا هي السفه والطيش وما إلى ذلك من الميول التي تنشأ من ضعف الإنسان أمام الرغبة والرهبة فتدفعه إلى عمل السوء وهو عالم به، ولكنّه يستجيب لنداء نوازعه النفسيّة فيعمل السوء ثمّ يثوب إلى الله فيتوب»[١٥].

ومن المهمّ أن نثبت -كما أُشير إليه سابقاً- أنّ صيغ مادّة الجهل في كتاب الله تعالى لم تقتصر على الإشارة إلى النهج المقابل للإسلام بمعناه الخاصّ، بل وردت في كتاب الله تعالى صفةً للمناهج المقابلة للإسلام بمعناه العامّ وللأقوام غير المسلمين على عهد جميع الأنبياء سلام الله عليهم إلى عهد نبيّنا محمّد ﷺ.

ونلاحظ أنّ في القرآن الكريم حيث وردت هذه المادّة بهذا المعنى قسمين من الآيات: الأوّل يقابل بين النبوّات وأتباعها وبين الجاهلين. والآخر: وردت فيه المادّة بصيغة (الجاهليّة) ويتناول مواقف معيّنة[١٦].

وفيما يأتي تحليل لبعض الآيات التي

(١٣) المفردات، طبعة ١٩٧٠ بإعداد الدكتور محمد أحمد خلف الله: ١٤٣.
(١٤) بين الجاهلية والإسلام، الشيخ محمد مهدى شمس الدين: ٢٣٧.
(١٥) بين الجاهليّة والإسلام: ٢٣٨.
(١٦) نفسه.

تناولت مظاهر معيّنة من المواقف الجاهليّة المقابلة للإسلام: قال تعالى: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [سورة هود: ٢٧-٢٩].

نرى أنّ هؤلاء في حوارهم مع نوح عليه السلام كشفوا عن تصوّرين جاهليّين عندهم. الأوّل: تصوّرهم للنبوّة اذ لا تكون لبشر مثلهم. والآخر تصوّرهم لقيمة الانسان إذ يرونها رهينة بما يملكه الإنسان من ثروة، أو بما ينتسب إليه من سُلالة وعشيرة. وهذان التصوّران الجاهليّان أفضيا بهم إلى السخرية من نوح عليه السلام وأتباعه ورميه ورميهم بالكذب في دعوى الرسالة الالهيّة.

وقال سبحانه: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٣٨].

فهذا التصوّر الذي يحمله بنو اسرائيل للاله سبحانه وتعالى على انّه ينبغي أن يكون مجسّداً في جسم مادّيّ تدركه حواسهم تصوّر جاهليّ للالوهة. وكان قارّاً في عقولهم ولم يكونوا وعوا معنى الالوهيّة الحقيقيّ كما جاء به موسى عليه السلام.

وقال جلّ شأنه: ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ سورة الأحقاف: ٢١ -٢٣].

فموقفهم الجاهليّ الذي أعلنوه ضدّ رسالة الله تعالى كما بلّغهم إيّاها هود عليه السلام، وتعصّبهم لما هم عليه من منهج وراثيّ في الدين والحياة هما سببا وصفهم بالوصف المذكور.

وقال عزّ اسمه: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ

لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[سورة النمل: ٥٤].

فانّ وصفهم هذا جاء من طريقتهم في الحياة الشهوانيّة الفاقدة لأيّ محتوى أخلاقيّ، ورفضهم لمنهاج الله تعالى الذي جاءهم به لوط عليه السلام، فسلوكهم الشاذّ في الاستمتاع موقف جاهليّ مَشين شجبه القرآن الكريم.

وخاطب سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله مذكّراً إيّاه بعناد المشركين في موقفهم من نور الهدى وعمى بصيرتهم عن رؤية الحقّ، فقال: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[سورة الأعراف: ١٩٨ -١٩٩].

الآية الاولى تصفهم بالاصرار على مواقفهم ضدّ رسالة الله تعالى، ومحاربتهم للهدى الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله. ومن هنا وُصِفوا بالجاهلين الذين ينهجون في حياتهم طريقاً غير طريق الله تعالى. علماً أنّ الآية الثانية جمعت مكارم الأخلاق كلّها. وفي الإعراض عن الجاهلين «الصبر والحلم وكظم الغيظ»[١٧] ومرونة الموقف وتحمّل الجهّال.

ووصف تعالى عباده وحالهم وموقفهم من الجاهلين فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[سورة الفرقان: ٦٣].

الذي يبدو من لفظ الجاهلين هنا وإن كان هو السفهاء بيد أنّهم قد وُضعوا في مقابل المسلمين المستنيرين بالإسلام (عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً). ولعلّ معنى السفه والطيش يُلابس معنى المنهاج والطريقة الفاسدة التي كان هؤلاء الجاهلون يلتزمون سلوكها في حياتهم.

ونختم هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾

(١٧) موجز علوم القرآن، الدكتور داود العطّار: ٦١.

وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[سورة القصص: ٥٢ -٥٥].

تحكي هذه الآيات موقفين لفريقين من الناس: موقف المسلمين، وموقف الجاهلين الذين يتبرّأ منه المسلمون فيقولون: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

تدلّ هذه الآيات على أنّ الموقف المعيّن المذكور فيها موقف غير إسلاميّ، وعلى أن أصحاب هذا الموقف لاينطلقون فيه من قاعدة إسلاميّة. علماً أنّ الآيات المذكورة كلّها مكّيّة نزلت قبل الهجرة[١٨].

هذا هو القسم الأوّل من الآيات. أمّا القسم الثاني فهو الذي وردت فيه كلمة «الجاهليّة». ويشتمل على أربع آيات. وهي كما يأتي:

١- ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ... ﴾[سورة آل عمران: ١٥٤].

٢- ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[سورة المائدة: ٤٩-٥٠].

٣- ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ... ﴾ [سورة الاحزاب: ٣٣].

٤- ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[سورة الفتح: ٢٥ -٢٦].

(١٨) بين الجاهليّة والإسلام: ٢٣٩ ـ ٢٤٢ ووردت الآيات المذكورة في هذا الكتاب مع تعليقاتها التي جاءت هنا بتصرّف.

تناولت هذه الآيات المباركة كليّات الوضع الإنسانيّ، فبيّنت الموقف الجاهليّ وضدّه الإسلاميّ في هذه الكليّات:

١. علاقة الإنسان بالله وعلاقة الله بالأحداث من خلال العمل البشريّ.
٢. المركز القانونيّ للإنسان بالنسبة إلى إنسان آخر.
٣. علاقة الرجل والمرأة في المجتمع.
٤. أسلوب التعامل بين الناس قيادات وأتباعاً، في القضايا العامّة.

أمّا الآية الأولى فقد جاء فيها ظنّ الجاهليّة. والمراد منه تصوّرهم المنحرف لحقيقة علاقة الله بالإنسان وعلاقة الله بالأحداث من خلال العمل البشريّ.

(وهو الموضوع الذي يمثّل نواة الظاهرة الجاهليّة. الأنانيّة، الزهو، العُجب، الاهتمام بالنفس وحدها... ونجمت الظنون الجاهليّة لتسخر بجميع الرسالات وأصالتها.. فواعجباً إنّها بلغت من الصلافة والوقاحة مبلغاً تتّهم فيه الله سبحانه، وهو في أعلى درجات جمال الطهر وأسمى مظاهر القداسة)[١٩]. فهي واردة لبيان الحقيقة الإسلاميّة بالنسبة إلى علاقة الله بالانسان و الأحداث في مقابل الوهم الجاهليّ بالنسبة إلى هذه العلاقة.

قال الزمخشريّ: «غير الحقّ» في حكم المصدر. ومعناه: يظنون بالله غير الظنّ الحقّ الذي يجب أن يُظنَّ به. و(ظنّ الجاهليّة) بدل منه... وظنّ الجاهليّة كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق. يريد الظنّ المختصّ بالملّة الجاهليّة)[٢٠]. وهذا الظنّ الباطل نابع من اهتمامهم بأنفسهم.

إنّ ما يلفت النظر في الآية المذكورة هو طَفَحُ الرواسب الجاهليّة على سلوك بعض المسلمين المقاتلين إذ وصفوا الله سبحانه بوصف ليس بحقّ بل من الأوصاف التي كان يصفه بها أهل الجاهليّة[٢١].

وهذا مايؤكّد الجاهليّة كحالة وليست فترة تاريخيّة سابقة تخصّ ماقبل الإسلام. ويبيّن أنّ الأنانيّة، والزهو، والعُجب، والأثرة والتشكيك، وانعدام الوعي السليم لأسباب النصر من ملامح الجاهليّة في الرؤية القرآنيّة.

وأمّا الآية الثانية: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ

(١٩) ظاهرة الجاهليّة من منظور قرآنّي، السيّد علي اكبر پَروَرِش (فارسى): ٨.
(٢٠) الكشاف ١: ٤٢٨.
(٢١) الميزان ٤: ٤٧.

﴿يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فهي صريحة غاية الصراحة في توضيح المعنى الحقيقيّ للجاهليّة. وكفى بها آيةً تبيّن معنى الجاهليّة، فالجاهليّة ليست في مقابل العلم والمعرفة، ولا في مقابل السفه والطيش، بل هي في مقابل الدين، وفي مقابل الله، بل هي النهج المقابل للإسلام، وهي اسم للحياة غير الإسلاميّة، سواءً في ذلك تلك التي سبقت الإسلام أو عاصرت ظهوره أو تأخّرت عن مبدأ ظهوره وخالفته في نظامه و نهجه، ونظرته الكلّيّة إلى الكون والحياة والإنسان. وهذه الآية تعدّ الإعراض عن حكم الله سبحانه من أهمّ مكوّنات النظام الجاهليّ... ونجد فيها، مرّةً أخرى، الأثَرَةَ والأنانيّةَ وتحكيم الذات البشريّة وحكومة الفرد المستبدّ بفكره... ومن ثَمَّ التمرّد على حكم الله...[٢٢].

وحكم الجاهليّة في هذه الآية هو تنويع المركز القانونيّ بالنسبة إلى الناس حسب صفاتهم في الغنى والفقر، أو حسب سُلالتهم، أو حسب مركزهم في المجتمع... وكلّ حكم لا يُراعى فيه العدل المطلق كما هو في منهاج الله تعالى فهو من حكم الجاهليّة[٢٣].

وجميل ماروي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال إذ قال: «الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهليّة. فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهليّة»[٢٤]. فالمنسوبيّة، والمحسوبيّة، وعدم مراعاة العدل المطلق في الحكم سمات بيّنة من سمات الجاهليّة.

وأمّا الآية الثالثة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ فتبرّج الجاهليّة فيها هو أن تكون المرأة أُنثى لجميع الذكور في المجتمع يستمتعون بانوثتها بالنظر واللمس وغيرهما[٢٥]. فالمرأة في النظام الجاهليّ للمتعة الجنسيّة لا للعلاقة الإنسانيّة، والعلاقة بين الرجال والنساء في المجتمع علاقة جاهليّة. وهذه من سمات الجاهليّة وملامحها. وحسبنا منها في بحثنا هذا ما أُثر عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال فيها: (أي: ستكون جاهليّة أُخرى)[٢٦].

(٢٢) ظاهرة الجاهليّة من منظور قرآنيّ: ١٥-١٦.

(٢٣) بين الجاهلية والإسلام: ٢٤٩.
(٢٤) الميزان ٥: ٣٦٥.
(٢٥) بين الجاهلية والإسلام: ٢٥٠.
(٢٦) الميزان ١٦: ٣١٦.

وعلّق العلاّمة الطباطبائيّ رحمه الله على هذا الكلام بقوله: «وهو استفادة لطيفة»[٢٧]. وحقّاً ما قال الإمام سلام الله عليه فما زلنا نعيش في جاهليّة لامِراء فيها. وقد مرّت هذه الجاهليّة في أدوار متفاوتة. فالمنطق القبليّ الذي ساد أجواء السقيفة، وبعض الأعمال التي مورست في عهد الحاكمين الأُوَل، واستلام الامويّين الحكم إذ عادت العصبيّة إلى حالها كما كانت في الجاهليّة[٢٨]، وكلام أبي سفيان: اللهم اجعل الأمر أمر جاهليّة والملك ملك غاصبيّة واجعل أوتاد الأرض لبني اميّة[٢٩]، وماتلا ذلك من نظم حكمت بعدهم إلى يومنا هذا، كلّ اولئك من أمارات الجاهليّة الأُخرى.

وأمّا الآية الرابعة: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ فالحميّة فيها هي القوّة الغضبيّة إذا ثارت وكثرت كما قال الراغب[٣٠]. وهي العقليّة العاطفيّة الإنفعاليّة التي تستحكم في نفس الانسان فتشعل أعصابه، وتدفعه إلى أن يعامل الناس بروح العدوان فيحرمهم حقوقهم الطبيعيّة لمجرد أنّه يختلف معهم في الرأي والهوى[٣١]. وهذه الآية جعلت حميّة الجاهليّة التي هي عنوان الأخلاق الجاهليّة في التعامل مع الناس خصوماً وأصدقاء مقابل التقوى التي هي روح وعنوان الأخلاق الإسلاميّة في التعامل مع الناس خصوماً وأصدقاء[٣٢]. وذهب الطبرسي في المجمع إلى أنّ الحميّة هي عادة آبائهم في الجاهليّة أن لا يذعنوا لأحد ولا ينقادوا له[٣٣]. فروح الكِبْر، والاستعلاء، و روح العدوان، والحُرون (عدم الانقياد)، والعصبيّة المقيتة ملامح و سمات بيّنة للنظام الجاهليّ. ونظرة فاحصة على هذه الآيات الأربع ترشدنا إلى ماهيّة الجاهليّة وطبيعتها كحالة ونهج حياتيّ يمكن أن يظهر في كلّ زمان ومكان ومجتمع.

الجاهليّة بمنظار حديثيّ وتاريخيّ

إذا ألقينا نظرة على ماورد من أحاديث

(٢٧) نفسه.
(٢٨) فجر الإسلام، أحمد أمين: ٧٩.
(٢٩) الغدير ٨: ٣٩٣. نقلًا عن ابن عساكر في تاريخه ٦: ٤٠٧.
(٣٠) الميزان ١٨: ٢٨٩.
(٣١) بين الجاهليّة والإسلام: ٢٥١
(٣٢) نفسه: ٢٥٣.
(٣٣) مجمع البيان ٩: ١٢٦.

نبويّة و أخبار تاريخيّة بشأن الجاهليّة وقفنا على حقيقتها كحالة اجتماعيّة ومنهج حياتيّ. ولكنّا قبل أن نختم الدراسة بهذه الأحاديث والأخبار من المهمّ المهمّ أن نذكّر بأنّ تاريخ السيرة النبويّة الشريفة يدلّ على أنّ رسول اللهﷺ كان يتوقّع ظهور الجاهليّة بين المسلمين وقادتهم بعد وفاته فحذّرهم منها حين قال لهم في خطبته يوم الفتح: «يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتفاخرها بآبائها ألا إنّكم من آدم و آدم من طين. ألا إنّ خير عباد الله عبد اتّقاه»[٣٤]. وكذلك حذّرهم منها في خطبته إبّان حجّة الوداع. فتحذيرهﷺ منها دليل قاطع على رجوعها، وقد رجعت، وبرهان ساطع على طبيعتها كنهج ونظام ومبدأ. وكانت النزعات الجاهليّة تظهر من حين إلى حين وتحارب نزعات الإسلام، وظلّ الشأن كذلك أمداً بعيداً[٣٥].

ونقول بعد هذا التذكير: إنّ رسول اللهﷺ استعمل هذا المصطلح القرآنيّ في هذا المعنى، معنى النهج والنظام. فقد قال لأبي ذرّ رضي الله عنه وقد عيّر رجلاً بأمّه: «إنّك امرؤ فيك جاهليّة»[٣٦]. يريد بذلك أن يعرف انّ ذلك لايتّصل بنهج الإسلام وإنّما يتّصل بنظام الجاهليّة في العلاقة بالناس. وقالﷺ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام حين بعثه إلى بني جُذيمة يَديهم ويُجبر كسرهم بعد أن أجرم خالد بن الوليد بحقّهم: «واجعل أمر الجاهليّة تحت قدميك»[٣٧] ومن كلامه الأوّلﷺ نعرف أنّ التعيير والتنابز بالألقاب وما ماثلها أخلاق جاهليّة لاتمتّ الى الدين بصلة.

ولما اقتتل غلامان من المهاجرين والأنصار بعد عودتهﷺ من غزوة بني المصطلق قال بعد أن سمع كلّا منهما يستجير بجماعته: «أدعوى الجاهلية وأنا فيكم؟.»[٣٨] وفي تعبير آخر: «مالكم ولدعوة الجاهليّة؟.»[٣٩].

(٣٤) الاسلام والآراء الوضعيّة، يحيى نورى: ٧١٣ (فارسي) نقلاً عن الوافي، عن الكافي.
(٣٥) فجر الإسلام، الطبعة الحادية عشرة: ٧٨.
(٣٦) نفسه: ٦٩.
(٣٧) دراسات في التاريخ الإسلاميّ، محمّد باقر الناصريّ: ٥٥.
(٣٨) مسند أحمد ٣: ٣٢٤؛ السنن الكبرى، البيهقيّ ١٠: ١٣٧؛ بين الجاهليّة والإسلام: ٢٥٤.
(٣٩) فجر الإسلام: ٧٩.

وفي الحديث انّ ما أدركه الإسلام من أحكام الجاهليّة فانّه يلقاه بالردّ والتنكير[٤٠].

وقد نسخ الله بشريعة نبيّنا محمّدﷺ أحكام الجاهليّة وذمّ من أقام عليها واستمرّ على العمل بها بقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائده: ٥٠][٤١].

وروى مسلم أنّ النبيّﷺ قال: «من قاتل تحت راية عميّة يغضب لعصبيّة أو يدعو إلى عصبيّة أو ينصر عصبيّة فقُتِل قُتِل قتلة جاهليّة»[٤٢].

وقالﷺ فيها: «دعوها فانّها مُنتنة»[٤٣].

وقد فهم المسلمون الأوّلون من الجاهليّة معنى النهج الذي يقابل الإسلام كما فهم منها ذلك غير المسلمين أيضاً. ويدلّ على ذلك الحوار الذي دار بين الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب وبين الهرمزان ملك الأهواز حين أُتيَ به أسيراً إلى المدينة.

«...فقال عمر: هيه يا هرمزان. كيف رأيتَ وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟. فقال: يا عمر، إنّا وإيّاكم في الجاهليّة كان الله قد خلّى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلمّا كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنّما غلبتمونا في الجاهليّة باجتماعكم وتفرّقنا»[٤٤].

ويطلق أبو الحسن البلاذريّ اسم «الجاهليّة» على العهد السابق على الإسلام في ايران، فيقول في كتابه (فتوح البلدان) عن مدينة الري: وكانت مدينة الري تُدعى في الجاهليّة: أرازي[٤٥].

وجاء في «العقد الفريد» لابن عبد ربّه الأندلسيّ في الحديث عن الشعوبيّة، واحتجاج الشعوبيّين لدعواهم قوله: «... فهذا كان شأن العرب والعجم في جاهليّتها»[٤٦].

ومن معالم الجاهليّة: الضلال، والضلال جاهليّة. وأشدّ الضلال بعد الانحراف عن نور الهُدى هو ترك التمسّك بالثقلين: القرآن، والعِترة. لأنّ الحديث المتواتر المشهور المتّفق عليه بين الطرفين

(٤٠) عون المعبود، العظيم آبادي ٩: ١٣١.
(٤١) فقه القرآن، القطب الراوندي ٢: ٣٥٢.
(٤٢) فجر الإسلام: ٧٩.
(٤٣) نفسه، نقلًا عن تفسير الطبريّ ٢٨: ٧٣.
(٤٤) بين الجاهليّة والاسلام: ٢٥٥ نقلًا عن تاريخ الطبريّ ٤: ٨٧ ـ ٨٨.
(٤٥) نفسه، عن فتوح البلدان: ٣١٦.
(٤٦) نفسه، عن العقد الفريد ٣: ٣٢.

لايدع مجالاً للشكّ والامتراء في أنّ التمسك بالثقلين دين والتزام بسنة نبويّة ثابتة مؤكّدة، وترك ذلك جاهليّة وإعراض عن سنّة نبوية اتّفق عليها الفريقان. ولقد أحسن من قال: (معرفة الإسلام خارج نطاق القرآن والعترة سقوط في حضيض الجاهليّة. من هنا فإنّ من لا يعرف إمام زمانه ليتعلم منه دينه ومات، مات ميتةً جاهليّة)[٤٧].

ومن معالمها: ظهور النزعات القبليّة بين المسلمين، وإيثار المصلحة الدنيويّة على المصلحة الأخرويّة، والشغف بالحكم والتسلّط هدفاً لا وسيلةً، ووجود العصبيّة العشائريّة بين بعض المسلمين، وتفضيل العرق والعنصر على الدين، و حبّ القوميّة البغيضة كهدف أعلى، والعلمانيّة التي ترفض الدين رفضاً مطلقاً.

ولعلّ أخطر جاهليّة تهدّدنا هذا اليوم بعد الجاهليّة الصهيونيّة ذات الطبيعة الشريرة والخطط المشؤومة والمكائد الخبيثة هي الجاهليّة المستشرية بين المسلمين بأنواعها التكفيريّة، والعنصريّة، والهجينة.

ولاريب في أنّ جاهليّة غير المسلم أهون على الإسلام والمسلمين من جاهليّة المسلم. والمسلم الذي لا يعتقد بتحكيم الإسلام في الحياة كمنهج ربّاني لابدّ له من قيادة الحياة والناس هو مسلم جاهليّ. والمسلم الذي يفتقد الوعي السليم الصحيح لدينه هو مسلم جاهليّ. والمسلم الذي يؤثر قوميّته على دينة هو مسلم جاهليّ والمسلم الذي يتصرّف تصرّفات غير دينيّة هو مسلم جاهليّ. وما أكثر هؤلاء في يومنا هذا!.

وكلّ اولئك نابع من الغفلة عن الله تعالى وآياته وعالم البرزخ وعالم الآخرة. أقالنا الله جميعاً من عثرة الغفلة لنكافح الجاهليّة ونقارعها بكلّ مفرداتها حتى يكون الدين وحده هو البديل.

وصفوة القول: انّها اسم للضلال والانحراف عن القيم الصحيحة، والمناهج المستقيمة. ومسيس حاجتنا اليوم إدراك معناها الحقيقيّ وصنع الموقف المطلوب منها بمقارعتها مقارعةً لاهوادة فيها.

(٤٧) جولة في المجتمع الجاهلّي، فارسي، محمد رضا امين زاده: ١٣٤.